



14 يناير 2020
بقلم: عبدالرحمن فهمي

يعيش الناسُ في دروب الحياة فيواجهون- أفرادًا وجماعات- حالاتٍ من الإفساد في الأرض، قد يواجهها الإنسان في نفسه أحيانًا أو في إخوانه المؤمنين بعض الأحيان، أو في بعضٍ من حوله من المنافقين أو الكافرين، وقد تتحوّل الأفعال من هؤلاء أو أولئك إلى سمةٍ تلتصق به ويتسمّى بها.. وفي كل تلك الأحوال يسأل الإنسان أو المجتمع نفسه: ما السبيل إلى مواجهة هذا الإفساد؟

والآيات التي استعرضناها من كتاب الله تُعلمنا أن تلك المواجهة كانت هي الجوهر الحياتي العملي لرسالات الرسل والأنبياء، وقد صكّ القرآن مصطلحًا لعملية المواجهة تلك؛ إذ سمّاه "الدفع"، كما رأينا في آية سورة البقرة 251، لكنّ النظر في سياق الآية يدلنا على أنها كانت تتكلم عن مستوى ودرجة من درجات ذلك الدفع وهو القتال، والذي يمكن أن يمثل قوسًا أيسرَ وحدًا أقصى لعملية الدفع تلك، والبحث في مادة "د ف ع" في القرآن الكريم يرسم لنا القوسين الذي يمكننا أن نضع بينهما مراحل "الدفع":

- فالآية 251 من سورة البقرة، ومعها الآية 40 من سورة الحج: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ ضَوَائِعُ وَيَبَعُ وَضَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ والآية 167 من سورة آل عمران: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا﴾.. كل تلك الآيات ترسم لنا قوسًا أيسرَ كما قلت وحدًا أقصى لمنهج التدافع.

- بينما تعطينا الآية 96 من سورة المؤمنون: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ والآية 34 من سورة فصلت: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ قوسًا أيسرَ لمنهج التدافع، وبين هذين القوسين تأتي مراحل "التدافع" المتدرّجة.

- تمثل الآيتان 5 و6 من سورة القصص أهدافًا غلبًا للتدافع: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ* وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾

* تمكين المستضعفين

* دحر المفسدين المستكبرين في الأرض

مراحل منهج التدافع

ويمكننا أن نتبين مراحل منهج التدافع القرآني من الجدول التالي:

--	--

<p>الدفع بالتى هي أحسن مقصود على الإفساد الخاص لا العام</p>	<p>الحلم والصفح والعفو، وهي المرحلة الأولى في منهج الدفع، وتدلنا عليها الآياتان السابقتان، كما تدلنا عليه الآية 40 من سورة الشورى والتي تناولناها سابقاً وإذا كان "الجلالين" يورد في تفسير الآية الأولى أنها جاءت قبل الأمر بالقتال، فإنه يقول في تفسير الآية الثانية: ادفع السيئة بالخصلة التي هي أحسن، كالغضب بالصبر، والجهل بالحلم، والإساءة بالعفو، فيصير عدوك كالصديق القريب في محبته إذا فعلت ذلك، ومن ثم فإننا لا نرى أن الدفع بالتى هي أحسن مرحلة تاريخية تُسخت بالقتال، بل إنها مرحلة عملية من مراحل الدفع تُستخدم فيما يناسبها من ظروف صالحة للتكرار في أي زمان ومكان.</p>
<p>البدء بالنفس</p>	<p>بأن يبدأ الفرد أو الأسرة أو المجتمع بإصلاح ما أفسده، أو بإصلاح ذات بينه (بإصلاح موجبات فساد البين من أسباب نفسية أو مادية) أو بالإصلاح فيما استُرعى فيه الإنسان، وهي المرحلة التي تدلنا عليها الآيات 160 و220 و224 و228 من سورة البقرة، و39 من سورة المائدة، و48 و54 من سورة الأنعام، و35 من سورة الأعراف، و16، و35 و128 و129 و146 من سورة النساء، والآية 89 من سورة آل عمران، والآية 1 من سورة الأنفال، والآية 117 من سورة هود، والآية 119 من سورة النحل، والآية 5 من سورة النور، والآية 9 من سورة الحجرات.</p>
<p>النصيحة</p>	<p>المرحلة وهي المرحلة وهي المرحلة التي يدلنا عليها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الدين النصيحة" قلنا لمن يا رسول الله؟ قال "لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم"، والتي تدلنا عليها الآيات 182 و224 و228 من سورة البقرة، والآية 35 من سورة النساء، والآية 1 من سورة الأنفال، والآية 183 من سورة الشعراء، والآية 77 من سورة القصص، والآية 36 من سورة العنكبوت، والآية 9 من سورة الحجرات، والآيات الكثيرة التي تتحدث عن حوار المرسلين مع أممهم، كآيات 62 و68 و79 و93 من سورة الأعراف والآية 34 من سورة هود والآية 20 من سورة القصص.</p>
<p>تعاون المصلحين</p>	<p>وهي المرحلة التي تدل عليها كل الآيات التي جاءت في الإصلاح بصيغة الجمع، كما تدل عليها الآية 2 من سورة المائدة ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾</p>
<p>موالاة المصلحين بعضهم بعضاً</p>	<p>والموالاة درجة أعلى من التعاون، وهي تعني النصر في الإصلاح، والنصرة على دفع الإفساد، وتدلنا عليها الآية 73 من سورة الأنفال، والآية 71 من سورة التوبة: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ وغيرها من الآيات التي تتحدث عن موالاة المؤمنين لبعضهم البعض في الإصلاح، وحرمة موالاة المفسدين من غيرهم، وفي هذا الباب تندرج الأحلاف التي تتعاون على دفع الظلم وإقامة العدل كحلف الفضول، وغيرها من الأحلاف بين المؤمنين وغيرهم من أجل "دفع" عمل من أعمال الإفساد في الأرض المستشرية في عصرنا.</p>

<p>وهي مرحلة عظيمة الشأن في حياة المجتمع المؤمن، وهي قريبة الصلة بالموالاة من جهة أن الآية 71 من سورة التوبة السابق ذكرها ثلّيت بمقومات الموالاة بين المؤمنين.. يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله، وتدل عليه الآيات 11 من سورة البقرة، و85 و116 من سورة هود، و183 من سورة الشعراء، و77 من سورة القصص، و36 من سورة العنكبوت، وعمومًا يمكن تلمّس ما جاء في الباب من آيات بالكشف في المعجم المفهرس عن الآيات الوارد فيها كلمة "أمر" أو "نهى".</p>	<p>الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر</p>
<p>وهي المرحلة التي يُستدل عليها من الآية 33 من سورة المائدة والتي تتناول حد الحرابة.</p>	<p>العقاب التشريعي</p>
<p>وهي المرحلة الأخيرة من منهج التدافع، فكما يقولون: آخر الدواء الكي، وهي المرحلة التي تدل عليها الآية 251 من سورة البقرة، والآية 40 من سورة الحج، والآية 167 من سورة آل عمران السابق ذكرها، كما يمكن الاستدلال عليها بما ورد من آيات حول القتال في القرآن.</p>	<p>جهاد الدفع (بالقتال)</p>
<p>وهي مرحلة يمكن أن تكون مصاحبة لجميع المراحل السابقة، إما دعاءً بهداية أو توبة لمن يُرجى منه ذلك، أو دعاءً على الظالمين والمفسدين في الأرض، وبالنصر عليهم إن لم يُجد غير ذلك، ودليلها من الآية 30 من سورة العنكبوت.</p>	<p>الدعاء</p>
<p>ويُتخذ في حالة العجز عن دفع إفساد المفسدين، وتدل عليه الآية 94 من سورة الكهف، ومن هذا الباب عقد المعاهدات التي تلي جهاد الدفع، ومعاهدات عدم الاعتداء، والمؤمن المصلح يميل دائمًا إلى استنفاد كل الوسائل التي تحقن الدماء، طالما ستحقق "دفع" الإفساد، وقد ينظر البعض إلى هذا النوع من الدفع على أنه دفع "سلبي" في مقابل مراحل الدفع الإيجابي المختلفة المذكورة، وهذا قد يصح إذا كان نوعًا من الانسحاب والخوف من المواجهة ولو حتى بالنصح والأمر والنهي، أو قد يُعدّ استسلامًا في حالة قبول استمرار أعمال الإفساد.</p>	<p>اتخاذ حاجز أو سد لمنع الإفساد</p>

ملاحظات عامة حول تطبيق المنهج

ولتطبيق هذا المنهج بمراحله أوّلاً أن أورد بعض الملاحظات الختامية:

- أن تلك المراحل ليست مراحل تاريخية ينسخ بعضها بعضًا كما قلت، بل إنها مراحل حياتية عملية، تُطبّق بحسب ما يقتضي الواقع المتغير.

- استنفاد وسائل الدفع السلمي أولى من القفز إلى وسائل الدفع القتالي، إلا إذا بدأ المفسدون "الإفساد المسلح" فيجب البدء بالدفع القتالي، وبلي ذلك عقد المعاهدات التي يمكن أن تندرج تحت بند اتخاذ حاجز.

أن الواقع يقدّر بقدرة لا اختيار ما يتناسب معه من مرحلة أو مراحل للدفع.

- ما لا يُقبل أبدًا بأي حال أن يقع الصالحون متفرّجين مستسلمين أو صامتين، بينما يقوم المفسدون بالإفساد في الأرض؛ لأن في صمتهم وسلبيتهم هلاكًا لهم، ولو أخذوا على أيديهم لنجوا ونجوا جميعًا، وبكفي في ذلك أن نقرأ الآيات 163-166 من سورة الأعراف، والتي نختم بها ورقتنا تلك؛ عسى ألا يجعلنا الله شياطين خرساء تسكت وتجن عن مواجهة الإفساد:

﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْعَرْزَةِ الَّتِي كَانَتْ خَاصِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَغْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِبَتَانِهِمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ تَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ* وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْبُدُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ* فَلَمَّا نَسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ أَنْجَبْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الشُّؤْمِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابٍ بَيِّسٍ يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ* فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهَوْا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾.

